أثار الدكتور طه حسين

بأفكاره ومنهجه عاصفة كبرى في الحياة الأدبية والثقافية العربية.وكانت الميزة الأساسية لطه حسين هي منهجه القائم على الشك العلمي،والنظرة الموضوعية المجردة للتاريخ والأشخاص،بعيدا عن التقديس والتعظيم،أو الخرافة والأساطير،وعدم الاعتداد بأي مسلمات جاهزة تقيد حرية البحث والتفكير. تلك هي القيمة الجوهرية لطه حسين في نظري،بغض النظر عن الاتفاق والاختلاف معه في نتائج بحوثه ودراساته. وفيما يلي نلقي أضواء سريعة على أبرز المعارك التي خاض طه حسين غمارها دفاعا عن آرائه ومواقفه..

مع مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧ م):

يعتبر الرافعي من أبرز أعلام المدرسة الكلاسيكية في الأدب العربي،وله أسلوب إنشائي متين،شديد التعمق في الصور البيانية من المجازات والاستعارات إلى حد التكلف والافتعال،وكان اصطدامه بطه حسين أمرا متوقعا،وقد قامت بين الطرفين سلسلة من المعارك الطويلة والقاسية نتوقف على أهم محطاتها بإيجاز:

في عام ١٩١٢م كتب طه حسين وهو لا يزال طالبا مقالا ينتقد فيه كتاب الرافعي"تاريخ الأدب العربي" ويشهد الله أنه لم يفهمه !،فأسرها الرافعي في نفسه. والطريف أن طه حسين قد عاد لاحقا في كتابه "في الشعر الجاهلي"ليثني على هذا الكتاب خير الثناء!

في أواخر أيام عام ١٩١٢م كتب الأديب حفني ناصف مادحا كتاب "حديث القمر "للرافعي،فكتب طه حسين مقالا قال فيه إن الرافعي ألح على حفني ناصف حتى يمدحه،فسارع الرافعي للرد والتكذيب..

في يوم ١٩١٣/١/٥م نشر حافظ إبراهيم قصيدة في جريدة"الجريدة" يمدح فيها كتاب الرافعي"حديث القمر"،فكتب طه حسين مقالا بتاريخ ١٩١٣/١/٧م بعنوان" حافظ إبراهيم وحديث القمر أمدح أم هجاء" قلب فيه معاني القصيدة حتى تكون ذما وقدحا في كتاب الرافعي،ورد الرافعي مرة أخرى واستمرت المعركة أياما.

وفي عام ١٩٢٣م أصدر الرافعي كتابه "رسائل الأحزان" فاستقبله طه حسين بالنقد اللاذع الذي جاء فيه :"نظلم الأستاذ الرافعي إذا قلنا إنه لا يشق على نفسه في الكتابة والتأليف،بل أنت تنصفه إذا قلت إنه ينحت كتبه من صخر، ولكني لا أجد في هذه الجملة ما ينبغي لوصف المشقة !،ومالي لا أتبسط معه بعض الشئ فأقول إن كل جملة من جمل هذا الكتاب تبعث في نفسي شعورا قويا مؤلما بأن الكاتب يلدها ولادة،وهو يقاسي من هذه الولادة ما تقاسي الأم من آلام الوضع...".وثار الرافعي وكتب ردا عنيفا أجاب عليه طه حسين برد أعنف.

وفي عام ١٩٢٦م أصدر طه حسين كتابه الشهير "في الشعر الجاهلي" وأثار الضجة الكبرى المعروفة،فوجد الرافعي الفرصة سانحة لتصفية الحساب مع طه حسين،حيث هاجمه بعنف بالغ مع سخرية وتهكم

في سلسلة من المقالات زادت على العشرين جمعها بعد ذلك في كتابه المعروف"تحت راية القرآن."

وفي الحقيقة لم يكن الرافعي رحمه الله بالذي يجهل قدر طه حسين،رغم كل الخلاف،وقد قال عنه ذات مرة :"أما طه حسين فليس بالضعيف الذي تتوهمه،وهو في أشياء كثيرة حقيق بالإعجاب،كما هو في غيرها حقيق باللعنة"..

مع زكي مبارك (١٨٩١-١٩٥٢م):

كان زكي مبارك تلميذا لطه حسين وسكرتيرا وزميلا له في التدريس الجامعي،وهو شخص صريح لا يعرف المجاملة،وأديب مشاغب كثير المعارك والمناوشات حتى لقب" الملاكم الأدبي"،وقد نال ٣ شهادات دكتوراه فسمى نفسه"الدكاترة زكي مبارك!"..ولكن حدثت تطورات وخلافات أدبية بين الاثنين بعد أن أصدر زكي مبارك كتابه"النثر الفني في القرن الرابع الهجري" ينتقد فيه المستشرقين وطه حسين... وقد تجاهل طه حسين هذا الكتاب واصفا له بقوله"كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب!"..وكان زكي مبارك يعمل بوظيفة مؤقتة بجامعة القاهرة كلية الآداب،فلما انتهى عقده رفض طه حسين تجديد العقد،فخرج زكي مبارك من الجامعة وعانى البطالة والفاقة،واتخذ الخلاف طابعا تصعيديا خطيرا يصفه مؤرخو الأدب ب"معركة لقمة العيش"..وقد شن زكي مبارك حملة ضارية ضد طه حسين امتلأت بالقسوة والتجريح بل والإسفاف، وهناك مقال شهير قال فيه :"لقد ظن طه حسين أنه انتزع اللقمة من يد أطفالي، فليعلم حضرته أن أطفالي لو

جاعوا لشويت لهم طه حسين وأطعمتهم لحمه !،ولكنهم لن يجوعوا مادامت أرزاقهم بيد الله."..

ورغم كل ما جرى لم يتخل زكي مبارك عن حبه ووفائه لأستاذه،وكثيرا ما يصف نفسه بتلميذ طه حسين تفاخرا. وقد كتب في مذكراته تحت عنوان "عدوي طه حسين" قائلا": إنه عدو عزيز أي والله،فما أذكر أني عاديت إنسانا أحبه مثل الدكتور طه حسين،والعداوة والحب يجتمعان في القلب الواحد وإن عجب من ذلك من لا يفقهون.." ثم يقول بعد ذلك :"طه حسين هذا يزعم فريق أنه ملحد، ويزعم آخرون أنه يدعو إلى الفسق والمجون، وأقسم بالله صادقا ما رأيت من هذا الرجل وقد صحبته إثني عشر عاما إلا القلب الطيب والأديب البارع والخلق المتين."

مع إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠-١٩٤٩م):

ذات مرة أعلن طه حسين أنه يشك في وجود شخصية" مجنون ليلى"، كون الرواة تضاربوا في أخباره وبالغوا وجاوزوا المعقول، فكتب المازني مقالا ساخر ا تهكميا بعنوان"طه ومجنون ليلى" أعاد نشره في كتابه"قبض الريح"،ومما جاء فيه إنه سيأتي زمان يشك فيه الباحثون في وجود طه حسين نفسه ! بسبب التضارب في أخباره وعدم التوفيق بينها..فإما أن يكون طه حسين أسما استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه، أو أن يكون هناك أناس كثيرون يتسمون طه حسين..الشيخ طه، طه أفندي حسين، الدكتور طه حسين!...

مع عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤م):

كانت علاقة طه حسين بالعقاد قائمة على الصداقة والاحترام المتبادل وتحاشي الاصطدام،وكان المناخ الهادي والودي يخيم على كل ما دار بينهما من حوارات ومناقشات.

ومن الحوادث الطريفة التي شهدتها الحياة الأدبية عام ١٩٣٤م ذلك الاحتفال المهيب الذي أقيم لمبايعة العقاد أميرا للشعراء-مثلما حدث مع احمد شوقي عام١٩٢٧ م !- وكان طه حسين بعد انضمامه لحزب الوفد الذي ينتمي له العقاد أبرز المشاركين..وألقى كلمة ترحيبية حماسية جاء فيها :"..أنا سعيد جدا في أن أعلن رأيي في صراحة،وأن أقول إني لا أؤمن في هذا العصر بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد...إني أؤمن به وحده لأني أجد عند العقاد مالا أجد عند غيره من الشعراء،وأكبر العقاد وأؤمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر،لأنه يصور لي المثل الأعلى في الشعر..." إلى أن قال :"ضعوا لواء الشعر في يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء،فقد رفعه لكم صاحبه".

وقد أثارت هذه المبايعة اعتراض أنصار شوقي وانتقادهم حتى قال احدهم "خدع الأعمى البصير حين سماه الأمير !". ومن الطريف أن طه حسين دأب في سنواته الأخيرة على إنكار مشاركته تلك ومحاولة التبرؤ منها وهيهات ! فإن كلمته موثقة ومنشورة في الصحف حينها.

وذات مرة سئل العقاد في حوار صحفي عن رأيه في مجموعة من الأدباء والمفكرين،ومنهم طه حسين الذي قال عنه ضمن ما قال :"إن نصيبه من مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية ليس بأوفى نصيب.." وسكت طه حسين وقتها، ولكن زكي مبارك انبرى للعقاد قائلا :"كيف يجوز لك أن تتهم الرجل في فهمه للشعر وهو الذي أسبغ عليك إمارة الشعر ؟"! وبعدما مات العقاد أعلن طه حسين أنه لا يفهم كتابه عن عبقرية عمر !